الاتجاه النفسي في الانثروبولوجيا

الدكتور قيس النوري
مدرس الانثروبولوجيا الاجتماعية
قسم الاجتماع ـ كلية الآداب

الانثروبولوجيا هي علم الانسان المقارن ، لانها تعنى باستقصاء الحقائق عن تطوره البايولوجي والحضاري وتدرس اشكال انظمته الاجتماعية المختلفة • ان نقطة تركيز هذا العلم هي الحضارة الانسانية بوجوهها المادية والمعنوية وبانماطها المتعددة التي تعكسها نظم حياة الجماعات التي تتألف منها البشرية • والجزء الاكبر من نشـــاط المختصين في هـــذا العلم ينصب بصورة على دراســـة المجموعات البدائية متخذا منها حقلا لتجريب الاســاليب المنهجية والتحقق من الفرضيات والآراء العلمية •

والحضارة Culture [1] في نظر الانثروبولوجيين هي نظـام معقد متكامل الاجزاء يتصف بالاستمرارية التاريخية بحكم انتقال انماطـــه القيمية من جيـل لآخر • ولما كان هذا النظام هو منطلق السلوك واساس التفاعل الاجتماعي في أي مجتمع فان دراسته لا يمكن أن تتم دون مشاهدة الافراد في حالات الاحتكاك والتأثير والاعتماد المتبادل • ان هذا الاسلوب الدراسي يتصف بازدواج الهدف • فهو في الوقت الذي يهتم فيه بتحديد القوى الحضارية التي تنظم علاقات الافراد ، فانه لا يتجاهل دور الميـــول والمواقف العاطفيـــة والذهنية التي تصاحب تلك العلاقات • والاهتمام الاخير هو ذو طابع نفسي • ان الذي يتتبـع تاريخ الفـكر الانثروبولوجي يرى أن الميل للتفسيرات والآراء النفسية في مراحله الأولى لم يكن بمستوى التأثير والشـمول الذي اصبح عليه الآن • ومن البديهي أن بحث مكانة الاتجاه النفسي في الانثروبولوجيا المعاصرة يستدعي البدء بعرض مراحل نمو هذا الاتجاه التي تتابعت واوصلته لحالته الراهنة •

---

(١) راجع 1. Ralph L. Beals And Harry Hoijer, An Introduction To Anthropology. The Macmillan Company, New York, 1956. pp. 206 — 207.

عرض تاريخي للاتجاه النفسي

١ - اوائل الباحثين :

لو استعرضنا اعمال الانثروبولوجين العلمية خلال القرن التاسع عشر للفتت نظرنا شخصيتان علميتان هما المفكر ثيودور فيتز T. Waitz (١٨٢١ - ١٨٦٤) وادولف باستيان A. Bastian (١٨٢٦ - ١٩٠٥) • فقد بلغ هذان العالمان درجة عالية من النضج العلمي قبل ظهور الداروينية واظهرا بعض الميول النفسية في دراسة الانسان • ويعود تأثيرهما في الدراسات النفسية الحضارية الى تبنيهما لفكرة كانت جديدة في ذلك الوقت وهي أن البحث النفسي سيبقى ناقصاً طالما بقي يدرس الانسان بمعزل عن الحضارة والمجتمع[٢] • وقد صرح باستيان في وقت مبكر من نشاطه العلمي بضرورة اعتماد الابحاث النفسية على الدراسات والتقارير الاثنوغرافية[٣] لان تفكير الفرد - على حد قوله - هو نتيجة طبيعية لعضويته في مجموعة بشرية معينة •

ان الاهتمام بالاتجاه السلوكي من قبل باستيان وغيره من الانثروبولوجيين ظهر في وقت بدأ فيه علم النفس يكتسب صفة الاستقلال • وصار المختبر التجريبي علامته الفارقة ورمزاً لمنزلته العلمية • ويعتبر العالم فونت Wundt المسئول الاكبر عن تأسيس هذا الحقل • وقد ركز الباحثون آنذاك جهودهم على دراسة الاستجابات التي يمكن اثبات عموميتها بالنسبة لجميع الافراد ، واعتبرت الفروق الفردية في هذا المجال غير مهمة •

وقد استغلت فكرة دراسة الاستجابات في ضوء البيئة الحضارية في البعثة الاثنوغرافية[٤] التي زارت مضائق تورز Torres Straits في ميلانيزيا عام

---

(٢) Robert, Lowie, History of Ethnological Theory. Rinehart and Company, Inc., New York, 1937. p.p. 16, 36.

(٣) الدراسات الاثنوغرافية هى الابحاث الميدانية الوصفية التى يجريها علماء الانثروبولوجيا وغالبا ما تتناول الجماعات البدائية • وهدفها الاساسي تحديد التنوع والتماثل في انظمتها الحضارية •

(٤) Robert Lowie, The History of Ethnological Theory. p. 87.

١٨٩٨ • وضمت البعثة العلماء (الفريد هادن) Alfred C. Haddon و (و• هـ• ريفرز) W.H. Rivers و (وليم ماكدوجل) W. McDougall و (س• سلجمان) C.G. Seligman و (س مايرز) C. S. Myers • ان وليم ماكدوجل وشارل مايرز قد اصبحا من اعلام علم النفس فيما بعد • اما ريفرز فهو من اقدم المحاضرين في مادة علم الاجتماع التجريبي وفسيولوجيا الحواس • وقد اكتسب مركزاً مرموقا في حقلي علم النفس والانثروبولوجيا • وكان سلجمان طبيبا ومع ذلك فقد ساهم في البعثة بدافع رغبته في تطوير البحث النفسي في علم الانثروبولوجيا ، تلك الرغبة التي اراد ارضاءها بزيارته للجماعات البدائية المنتشرة في تلك المضائق •

وقد ركز العالم ريفرز اثناء وجوده في المضائق على دراسة النواحي البصرية لدى الاهلين في تلك المناطق ، أي حدتهم البصرية ورؤيتهم للالوان وبحث المصطلحات المستعملة لديهم والتعبير عنها ، واستجابتهم لبعض اشكال الخداع البصري • وقد اجرى ابحاثا مماثلة بعد عودته من البعثة في اسكتلندا والقطر المصري وقبيلة تودا Toda في الهند ، اما بقية اعضاء البعثة فقد درسوا سايكولوجية سكان المنطقة •

ونلاحظ من مطالعتنا لابحاث هذا المفكر ازدواجاً في ميوله العلمية يظهر في اتجاهاته النفسية(٥) المصحوبة بالآراء الاثنولوجية(٦) • ولكنه في التحليل النهائي لم يحقق اندماجا متكاملا بين الاتجاهين ، بل ظلا اميل الى الانفصال في دراساته رغم محاولاته لصهر علم النفس والاثنولوجيا في اطار واحد(٧) • ومما يذكر عنه أنه أثار موضوعات جدلية مفيدة في حقل علم النفس الاجتماعي • فهو يتساءل كيف

(1) Rivers, W.H. **'The Todas'** London: Macmillan & Co. 1906. (٥)

(2) Rivers, W.H. **The History of Melanesian Society.** Cambridge, 1914. (٦)

(3) Robert Lowie. op. cit. p. 172. (٧)

S.F. Nadel. **The Foundations of Social Anthrology,** The Free Press, Illinois, 1952. p. 298. (٨)

يمكننا فهم الفعاليات الذهنية والنفسية البشرية بدون معرفة البيئة الاجتماعية التي تلعب دورا كبيرا في تحديد آراء وعواطف الافراد ؟ ويظهر اهتمامه بعامل التصير الاجتماعي في نزاعه العلمي مع العالم الكلاسيكي وسترمارك حول ظاهرة الثأر الدموي Blood Feud • فبينما يعتقد وسترمارك ان هذه الظاهرة لا يمكن أن تفسر الا من زاوية عاطفة الانتقام ، يرى ريفرز أن تفسيرها يجب أن يستمد من الظروف الاجتماعية حيث ترتبط ظاهرة الثأر الدموي ببقية القيم والمؤسسات الاجتماعية • وهكذا يبتعد هذا العالم شيئاً فشيئاً عن تأكيداته الاولى التي تدور حول دور القوى الفسيولوجية في السلوك •

وقد رفض الاتجاه التطوري الكلاسيكي بعد رحلته العلمية الاخرى الى جزر ميلا نيزيا حيث اجرى دراسات اثنولوجية هناك • الا أنه اهتم بالنظرية الانتشارية التي تبناها العالم البريطاني اليوث سمث[٩] ، حيث قدم فيها فرضية تقول بانتشار الحضارة في العالم من وادي النيل • وقد ساعدت ابحاث ريفرز التي اجراها في ميدان علم النفس الفسيولوجي على توفير الدليل الذي ساعد على دعم الرأي القائل بالوحدة النفسية Psychic Unity للانسان • وقد اثبتت الابحاث المتأخرة قوله بتماثل ارهاف الحس لدى جميع العناصر البشرية[١٠] •

ومن الانثروبولوجين الذين تأثروا بالعالم ريفرز هو المفكر المعروف رادكلف براون Radcliffe-Brown • فقد درس علم النفس على يديه • ورغم أن اهتمام رادكلف براون بمشاكل التنظيم الاجتماعي قد طغى على الجزء الاكبر من ابحاثه فان دراسته لسكان جزر الاندمان[١١] هي ذات وجهة نظر نفسية • فقد اظهر فيها كيف أنهم يفكرون ويسلكون بطرق محددة • كما اوضح أن العادة الاجتماعية الواحدة هناك تستدعي لتوضيحها اظهار ارتباطها بباقي العادات وبنظام الجماعة العام للافكار والعواطف • كل ذلك يضاف الى تحليله للمغزى النفسي للشعائر والطقوس مع الاشارة بصورة خاصة الى دورها في التعبير الجمعي عن

---

(1) Robert Lowie. Op. cit. p. 169. (٩)

(2) Franz Boas. **The Mind of Primitive Man.** Introduction. (١٠)

(3) A.R. Radcliffe-Brown. **The Andaman Islanders.** p. 109. (١١)

نظام العواطف • وتبرز في كتاب رادكلف براون المومى اليه فرضيات ميدانية مفيدة تتضمن مفهوم العاطفة اهمها : ١ ـ افتراضه أن المجتمع يعتمد في ادامة بقائه على وجود نظام معين للعواطف في اذهان الافراد يعمل على تحقيق مطابقة سلوك الفرد مع احتياجات المجتمع • وقد رأى ان الطقوس التي درسها في جزر الاندمان تؤدي وظيفة نقل المواقف العاطفية من جيل الى آخر ، وبذلك تساعد على دعم التآزر الجماعي الذي يرتكز على تلك المواقف(١٢) • ٢ ـ على الرغم من عالمية الترابط النفسي في المجتمع الاّ أن التنظيم النفسي للافراد يختلف باختلاف النظم الاجتماعية • ٣ ـ أن العواطف ليست موروثة بل تنشأ في الفرد نتيجة للتأثيرات التي يتعرض اليها في المجتمع(١٣) •

ويشعر الباحث الانثروبولوجي أن فرضيات رادكلف براون تشابه المبادىء الاساسية في حقل الحضارة والشخصية المعاصر • اذ يفترض في هذا الحقل ١ ـ أن هناك عمليات نفسية ثابتة نسبيا تحدد داينمكية التكيف النفسي البشري في كل مكان(١٤) • ٢ ـ يعتمد دوام النظام الحضاري والاجتماعي في المجتمع على البناء النفسي لاعضائه ٣ ـ يكتسب الفرد تنظيمه النفسي عن طريق تفاعله الاجتماعي ونشأته الاجتماعية • ٤ ـ ان هذا التنظيم النفسي يختلف باختلاف المجتمعات ٥ ـ تعمل المؤسسات الاجتماعية المختلفة على ادامة ارضاء الدوافع الوجدانية • على أن الفرق بين حقل الحضارة والشخصية واتجاه رادكلف براون هو أن اهتمام الاخير يكاد ينحصر في دراسة طقوس معينة من زاوية نظم عاطفية نظرية • اما دراسات الحضارة والشخصية فتسعى الى اكتشاف التنظيم النفسي الحقيقي وداينمكية الشخصية البشرية في مختلف الظروف الحضارية والاجتماعية • هذا بالاضافة الى اهتمام هذه الدراسات بتحليل الحالات الفردية للتعرف على العوامل التي تؤدي الى تنوع انماط البناء النفسي للشخصية •

---

(١٢) (1) A.R. Dadcliffe-Brown. **TOBOO** (in) **Reader in Comparative Religion.**

(١٣) (2) A.R. Radcliffe-Brown. Ibid p. 106.

(١٤) (3) A. Kardiner. Psychodynamics and The Social Sciences. (in) **Culture and Personality** pp. 59 — 71.

٢ ـ دراسة الفروق الفردية :

قبل نهاية القرن التاسع عشر نمت رغبة الباحثين في حقل اكاديمي صار يدعى فيما بعد بعلم نفس الفروق (Differential-Psychology) • وقد سبب هذا الاتجاه ابتعادا تدريجيا عن الاطار العام لعلم النفس التجريبي لتلك الفترة وعن العرف الذي ارتكز على مبدأ الاقتران النفسي ، أي اقتران الافكار ، والذي تجاهل ظاهرة التنوع الفردي • وهكذا بدأ المختصون النفسيون والحضاريون يناقشون اختلافات الجماعات والافراد • ثم بديء باستعمال الاختبارات النفسية لتحديد اختلاف قدرات الافراد على مستوى الميول الحسية والتلقائية بدلا من المستوى الذكائي • ثم بدأت موجة من الابحاث ، كالتي قدمها كلاينبرج[١٥] O.Klineberg ، ونادل S. Nadel وفي وقت متأخر اناستاسي وفولي ، وكان التركيز فيها على ضرورة فحص درجة ملاءمة اختبارات الذكاء في تحديد الفروق الذهنية بين العناصر • وقد اثبتت تلك الابحاث عدم واقعية هذه الاختبارات وافتقارها للموضوعية •

وفي الوقت الذي صارت فيه الانثروبولوجيا تكتسب صفة الحقل العلمي المنظم في الولايات المتحدة الامريكية كان العالم النفسي الالماني فونت Wundt قد حقق شهرة عالمية • وقد حاول توحيد السيكولوجية التجريبية مع سيكولوجية الطفل والحيوان • وقد اعتقد ان المعلومات التاريخية والحضارية تصلح للابحاث النفسية • ودفعه ذلك الاعتقاد الى دراسة المشاكل الناتجة من تفاعل الفرد وعمليات التغير التاريخي • وتنطوي أبحاث فونت على وحدات علمية تصلح لأن تكون دعائم منهجية تناسب دراسة الشخصية والبناء الاجتماعي • ويبرز بينها مفهوم تشتت الاهداف Heterogony of ends [١٦] • ان هذا المفهوم لا يقوم على افتراض التجانس أو التكامل (Integration) المستعمل في كثير من الدراسات الحضارية والذي يتضمن تجاهل اوجه التناقض والاختلاف في البناء الاجتماعي • هذا بالاضافة

---

(١٥) 1. Otto Klineberg. Social Psychology. Introduction.

(١٦) S.F. Nadel. Op. cit., p. 387.

الى أن مفهوم التشتت المذكور لا يستدعي التلميح عن درجة التكامل والاندماج ، ما اذا كانت عالية او واطئة ، وهو بذلك يجنب الباحث الوقوع في اصدار الاحكام التقييمية التي تجانب الموضوعية العلمية في كثير من الاحيان • فالذين تعصبوا لمبدأ التماسك او التكامل الحضاري صاروا يصفون بعض الحضارات بالتكامل العالي والاخرى بضعف التكامل او التفكك Disintegration رغم أن مثل هـذا القياس يتعذر في حقل تنصب فيه الدراسات على القيم المعنوية •

يظهر من ذلك أن اتجاه فونت الاجتماعي والنفسي خصوصا اهتمامه بتنوع الاهداف في المجتمع يمكن أن يستغل بصورة مفيدة • وهو من حيث الاسـاس ينسجم بصورة واضحة ومنهاج المدرسة التنظيمية الحضارية Organizational الذي يعنى بظواهر التناقض في البناء الحضاري وبقـدرة الحضارة على تحقيق التوافق بينها •

ولم يكن فونت آخر من تعرض لمشكلة التلاحم المقترح بين البحث النفسي والحضاري • فقد اثار العالم كروبر هذه المشكلة بروح متشككة[١٧] في امكانية انجاز هذا الهدف • وهو يتساءل عما اذا كانت مكتشفات المشتغلين في حقل علم النفس الحضاري ستختلف بصورة جوهرية عن مكتشفات علم النفس الفردي • ويرجع هذا الشك في موقف كروبر من الاتجاه النفسي الى عوامل مختلفة اولها فشل فونت وانصاره في القضاء على الطـابع الفردي الذي اتصفت به الابحاث النفسـية رغم رغبتهم الصريحـة بخلق تقارب اوثق بين علم النفس والبحث الحضاري • وثانيها وجهة النظر التاريخية[١٨] التي التزم بها كروبر طيلة حياته الاكاديمية والتي قوت في اعتقاده بافضلية ابقاء الحضارة كمفهوم مستقل يركن اليه في تفسير السلوك •

وقد كان للعالم سـتانلي هول Stanley Hall دوراً معروفاً في تطور الانثروبولوجيا وعلم نفس الطفل والتحليل النفسي في الولايات المتحدة • فقـد

---

(١٧) A.I. Hallowell. "Psychology and Anthropology". (in) **For A Science of Social Man.** P. 186.

(١٨)

دعى الانثروبولوجست المشهور فرانس بواس ذي الاصل الالماني للتدريس في جامعة كلارك أثناء وجوده في منصب رآستها • كما دعى العلمـاء فرويد ويونج للتدريس في تلك الجامعة •

٣ ـ المنهج السلوكى

اما تأثير المدرسة السـلوكية في الانثروبولوجيا فهو يجاوز تأثير جميـع الاتجاهات النفسية الاخرى[١٩] • ففي اوائل هذا القرن كان علم الانثروبولوجيا قد خطا خطواته التمهيدية ، وصار الانثروبولوجيون يعرفون الكثير عن التنـوع الحضاري[٢٠] في العالم • وقد بدأوا يشعرون بعدم جدوى الدراسات النفسـية التي كانت تدور حول مفهوم الطبيعة الوراثية للخصائص البشرية دون اشارة الى العوامل الحضارية • وقد اثار هذا النقص انتباه الكثيرين من الانثروبولوجين وعلى رأسهم العالم روبرت لوي ، الذي اكد أن مفهـوم الحضارة يؤلف الموضوع الاوحد للبحث الانثروبولوجي بعكس علم النفس الذي يتوفر حسب رأيه على دراسة الشعور Conscious • وتضمن نقد لوي الاشـكال الجديدة للبحث النفساني والتي اهتمت بالتنوع السلوكي للافراد وبحالات الشذوذ • وهو يعتقد أن هذا النوع من البحث السايكولوجي قد فشل هو الآخر في معالجة الصفات المكتسبة ، كما اهمل تأثير المجتمع في تفكير الفرد وشعوره وميوله[٢١] • وقد ظهرت الى جانب هذه المواقف الانتقادية المتشككة مواقف انثروبولوجية تتصف بالتفـاؤل والتطلع لامكان تقليص الفجوة التي تفصل بين علم النفس والانثروبولوجيا[٢٢] •

ومن الاسباب التي استهوت الانثروبولوجيين الى الاتجاه السلوكي هو معارضته لعقيدة الغرائز التي سادت آنذاك • وتتجلى هذه المعارضة في آراء العالم ج • واتسن J.B. Watson الذي صرح[٢٣] بأنه يكفل اعداد أي طفل سليم بنجاح

---

(١٩) (1) G.P. Murdrock. **Social Structure** P. xvi.

(٢٠) (2) Otto Klineberg. Op. cit., P. 12

(٢١) (1) R. Lowie Culture and Ethnology, P.P. 5, 16.

(٢٢) (2) A.A. Goldenweiser. History, Psychology and Culture. P. 74.

(٢٣) (3) J.B. Watson. **Benhaviorism.** P. 82.

في اي حقل مهني او فني برفع النظر عن مواهبه وميوله وصفاته الشخصية وعنصره • ان هذا الموقف « البيئي » ينسجم والمبدأ الانثروبولوجي القائل بأن الحضارة هي ظاهرة مكتسبة وان الافراد الناشئين في ظروف حضارية مختلفة يكتسبون عادات مختلفة • ومع أن السلوكيين قد اهتموا بدراسة عملية التعلم ، الا أنهم اتبعوا في دراسته اسلوبا خاصا يعتمد على المفهوم الكلاسيكي للاقتران Association الذي طور من خلال ابحاث « الاستجابات المشروطة » • وقد برزت في هذه الدراسات بصورة خاصة عمليتان أساسيتان هما (المحاولة والخطأ) و (المكافأة والعقاب) • ورغم أن الفرضيات الاساسية في هذا الحقل قد استند فى وضعها الى تفسير فعاليات الكائنات الحيوانية المختلفة المتصلة بحل المشاكل المختبرية ، الا أنها اعتبرت ملائمة لتفسير السلوك الانساني •

على أن علاقة المدرسة السلوكية بالانثروبولوجيا قد تعرضت لنقد بعض الانثروبولوجيين • فقد اثار الانثروبولوجست نادل[٢٤] Nadel بعض الانطباعات التي تشكك في ايجابية هذه العلاقة • فهو في الوقت الذي يتحدث فيه عن تأثير المذهب السلوكي في علم الانثروبولوجيا ، كما يعبر عنه انتشار مصطلحات هذا المذهب وشيوع افكاره في هذا العلم ، فانه يشير لعدم جدوى تلك الافكار ويحذر من سذاجتها •

ومع ذلك فان الدليل على استمرار التأثير السلوكي في علم الانثروبولوجيا خصوصا في الولايات المتحدة يلحظ في النشاطات العلمية المتأخرة التي مارسها بعض الباحثين كالعالم جورج مردوك[٢٥] ، وجلن[٢٦] وفورد وواينتج[٢٧] •

ويبدو أن جزء من المقاومة التي لاقاها علم النفس التحليلي Psychoanalysis ودراسة الشخصية في الحضارة يرجع الى اعتبار الاتجاه السلوكي آنذاك

---

(٢٤) S.F. Nadel. Op. cit. P. 386.

(٢٥) J.P. Murdock. Op. cit. P.P. 131 — 133, 300 — 313.

(٢٦) J. Gillin. **The Ways of Men,** New York: 1948.

(٢٧) Clyde Kluckhohn, **Culture and Behavior** pp.9 — 10.

أكثر موضوعية بالقياس للبحث النفسي التحليلي الذي اعاد في بداية ظهوره « شبح » الميول الغريزية الانسانية التي اضفت عليه مظهراً ذاتيا • ولكن بعض الانثروبولوجيين سعوا الى التوفيق بين الاتجاهين • وابحاث برونسلاو مالنفسكي B. Malinowski هي أحسن مثل على ذلك التوافق ، فقد درس الحضارة من زاوية السلوك واعترف باهتمامه بالمواقف النفسية • كما اكد على اهمية النظرة السلوكية في دراسة عمليات التصير الاجتماعي والحضاري • وقال بأن استثمار طرق التحليل النفسي لا يقلل من اهمية الاتجاه السلوكي • وقد ذكر لاثبات وجهة نظره هذه أن الطرق التي يعتمد عليها الباحث الحقلي Field-Worker والدارس السلوكي تتشابه كثيراً • فالاثنان يعلمان أن الافكار والعواطف والعقائد هي شديدة الارتباط بالبيئة الاجتماعية ولا يمكن دراستها بصورة مثمرة اذا نظر اليها من خلال وجودها في الشخصية فقط •

ولكن مالنفسكي تطرف في آرائه النفسية السلوكية • ويظهر ذلك في اعتباره للحضارة كبناء مؤلف من العادات والميول ، أو كاداة تكيفية موجهة لارضاء الحاجات الاساسية Basic needs • ومحفزات السلوك الرئيسية ـ حسب رأيه ـ هي الحاجات البايولوجية التي تعمل كأساس للعمليات النفسية• ويخلص مالنفسكي من ابحاثه الى نتيجة جوهرية هي أن الطبيعة البشرية (Human Nature) تتلخص في الحتمية البايولوجية[٢٨] التي تفرض على اي حضارة وافرادها ضرورة انجاز الوظائف الجسمية المختلفة كالتنفس والنوم والراحة والتغذية والتبرز والتكاثر •

٤ ـ اسلوب التكامل الحضاري :

اما استعمال « مفهوم النمط » "Pattern" و « الطابع الكلي » "Configuration" في دراسة الحضارة فلا يشير الى تأثير علم نفس الكشتالت المباشر في علم الانثروبولوجيا • فالعالم كروبر[٢٩] يرى في الانماط نظما تتضمن العلاقات الداخلية التي تعطي للحضارة تماسكها وترتفع بها عن مستوى التجميع العشوائي للاشياء •

(٢٨) B. Malinowski. **A Scientific Theory of Culture**, p. 23.

(٢٩) A. Kroeber. Anthropology, p. 311.

اما روث بندكت Ruth Benedict التي كرست جانبا كبيرا من نشاطها لدراسة الانماط الحضارية[٣٠] فقد اعتمدت على فكرة النمط كوسيلة تساعد على عرض الحضارة ككل متكامل Integrated whole ، بعكس المنهج الانثروبولوجي الاسبق الذي اعتاد أن يصور النظم الحضارية بشكل اجزاء او صفات[٣١] "Traits" دون ابراز ارتباطها العضوي في البناء الحضاري • ودراسات بندكت هي دات صبغة نفسية لانها تستخلص من أي حضارة نمطاً ذهنيا وعاطفياً يدور حوله الوجود الكلي للشخصية ويطلق على هذا النمط مصطلح "Ethos" ايثوس • ويظهر الميل لاستعمال البرنامج القائم على بحث الحضارة ككل متميز عن نظم الحضارات الاخرى فى نتاجات العالم سابير[٣٢] رغم أنه يعتمد على مفهوم « الاعجاز الحضاري »"Culture genius" في تحليله للتكامل الحضاري بدلا من مبدأ النمط •

ومن بين الاسباب التي حالت دون اقبال الانثروبولوجيين على سيكولوجيا الكشتالت هو أن هذا العلم يناسب الانثروبولوجيين الذين تهمهم دراسة السلوك لا دراسة الحضارة نفسها ، او دراسة الانماط الحضارية الكلية المشتقة من السلوك • والواقع أن العالم كوهلر Kohler – وهو من ابرز مؤسسي هذا العلم – قد اهتم بدراسة عمليات السلوك المعرفي على مستوى الداينمكية النفسية[٣٣] ، وليس في اطار الحضارة والشخصية • والسبب الآخر هو أن مناوءة الكشتالت للاتجاه البيئي المتطرف الذي تجلى في المدرسة السلوكية القديمة جعلته يصطدم باتجاه « الحتمية الحضارية » الذي ميز الفكر الانثروبولوجي في مراحل تكوينه الاولى • هذا بالاضافة الى أن سيكولوجيا الكشتالت لم تأخذ بنظر الاعتبار مفهوم النسبية الحضارية • ويظهر النقص الاخير في مواقف كوهلر من بعض مظاهر الحياة

---

(٣٠) Ruth Benedict. **Patterns of Culture.**

(٣١) Clark Wissler. **Man and Culture.**

(٣٢) E. Sapir. Culture, Language and Personality, pp. 78—119.

(٣٣) S. Nadel. Op. cit., p. 261.

البدائية التي قال بامكان دراستها من خلال علم نفس تطوري يظهر انطباقها على مستوى انساني هو « اوطأ » من مستوى المجتمعات المتمدنة •

٥ ـ تأثير التحليل النفسي :

أن أي محاولة لتحديد طبيعة الاتجاه النفسي السائد في علم الانثروبولوجيا خلال هذا القرن (وهو ما يطلق عليه فنياً مصطلح الحضارة والشخصية) تظهر أن اهم التأثيرات النفسية التي تعرض لها هذا العلم هي تلك التي ولدتها نظريات التحليل النفسي وعلم النفس العيادي (٣٤) "Psychiatry" خصوصا ما يتصل منها بالسلوك البشري •

ومن المعروف أن هذه النظريات هي نتيجة العلاج النفسي Psychotherapy الممنوح للمرضى، والذي يعتمد على دراسة تجارب الحياة الحقيقية لهؤلاء الافراد • والواقع أن هذه المعلومات العلمية تختلف تماماً عن نوع المعلومات التي كان عالم الانثروبولوجيا الاجتماعية قد اعتاد على جمعها • وقد كان هدفه من جمعها الحصول على مواد تساعده على اصدار التعميمات الوصفية عن الخصائص الحضارية للجماعات البشرية بالشكل الذي تسمح به جوانب حياتهم الجمعية ، دون الاهتمام بالشخصيات الفردية لافراد هذه الجماعات او بظروفهم الخاصة ، اذ أن الصفات المشتركة التي تنطبق على أعضاء المجتمع هي مادة البحث لكل من موضوعي الاجتماع والانثروبولوجيا • واذا صادف أن دَوَّن عالم الانثروبولوجيا تصريحات أحد المخبرين "an informant" في قرية فهو لا يريد من ورائها التعرف على شخص المخبر بالذات بل يحاول أن يستقرىء منها حقائق ذات ارتباط بوجود حياة الجماعة كلها • ومع ذلك فقد شاعت دراسة الحالات الفردية الخاصة life histories بفضل ترويجها من قبل بعض المختصين كادوارد سابير وبول ريدن P. Radin (٣٥) وكلايد كلكهون (٣٦) وغيرهم •

---

(٣٤) E. Sapir. Op. cit.,pp. 140 — 163.

(٣٥) Paul Radin, **Primitive Man as Philosopher.**

(٣٦) Clyde Kluckhohn, op. cit., pp. 150 — 167.

والملاحظ أن الافراد الذين يقتبس المحللون النفسيون المعلومات منهم هم اشخاص يعانون من الاضطرابات النفسية المختلفة • لذا فان الاتجاه الدراسي العام للمحلل النفسي (العيادي على الاخص) يميل الى التركيز على الجوانب السلوكية الشاذة اكثر من تأكيده على الجوانب السوية • ان هذا الاتجاه يتناقض والاسلوب المتبع في حقل الانثروبولوجيا الذي لا يعنى كثيرا بمشاكل الشذوذ • ولكن الاتجاه التحليلي رغم تناقضه والعرف الانثروبولوجي قد نجح في جذب بعض الانثروبولوجيين لانه اثار مشاكل هامة لها ارتباط بتنوع السلوك ازاء القيم السائدة في المجتمع • فتغاير التنظيم الاجتماعي والحياة الاقتصادية واشكال الفن في المجتمع هو من الحقائق المألوفة في الاثنولوجيا • وقد ظهرت مجموعة من البحوث الانثروبولوجية حول موضوع الاضطرابات النفسية والسلوك الشاذ في بعض المجتمعات ، خصوصا تلك التي تعرضت لحالات التصادم الحضاري بحكم احتكاكها بحضارات الغرب(٣٧) •

ومن جوانب تأثير التحليل النفسي في الانثروبولوجيا هو الاتجاه الذي يعرض الشخصية كبناء كلي وظيفي • وقد كان الانثروبولوجيون قبلاً يناقشون موضوع الحضارة كمفهوم مجرد ويشيرون بصورة عرضية الى ادوار الافراد في نقل الانماط الحضارية عبر الاجيال والتي يعتمد عليها استمرار الحضارة • ولكن بفضل تأثير التحليل النفسي صار الانثروبولوجيون يهتمون بصورة متزايدة بعلاقة البناء النفسي لشخصية الفرد والنظام الحضاري الذي يعكسه هذا البناء • وقد دفعهم الاهتمام بدراسة النظام الاجتماعي وتنظيم الشخصية الى البحث في طبيعة الشخصية البشرية من زاوية وظيفتها الكلية •

---

(٣٧) هنالك معلومات كثيرة عن مشاكل التصادم النفسي والحضاري تتوفر في مؤلفات الانثروبولوجيا عن موضوع « التأقلم الحضاري » أو الـ Acculturation • راجع على سبيل المثال كتاب انتوني اولاس :
Anthony Wallace. Culture and Personality.

دراسة الشخصية

يعتبر الاتجاه المتصل ببحث الشخصية من الحركات الهامة في حقل الانثروبولوجيا • وقد بدأ هذا الاتجاه بالظهور في الثلاثينات واتسع حتى صار يدعى في الوقت الحاضر « بدراسات الحضارة والشخصية » ويعود الفضل في نشأته لجهود الانثروبولوجيين الذين احسوا بتنامي الضرورة لتوثيق صلة الانثروبولوجيا بعلم النفس عموما وعلم االتحليل النفسي بصورة خاصة • وقد تمخضت تلك الجهود عن تنقيح مواقف فلسفة مافوق العضويات (٣٨) "Superorganic" التي قال بها بعض الانثروبولوجيين الحضاريين ، تلك الفلسفة التي حثت على دراسة الحضارة بشكلها المجرد المستقل عن الافراد والذى تحدده العوامل التاريخية وقوى التكيف المحلي (٣٩) • وكان من نتائج تأثير تلك الفلسفة أن اعترى البحث النفسي الانثروبولوجي بعض الخمول حتى اعلن بعض الانثروبولوجيين وعلى رأسهم « سابير » و « لنتن » وكلكهون ان اتخاذ الحضارة كاساس للدراسات الانثروبولوجية لا يمنع من بحث الارتباط النفسي بين الافراد وانظمتهم الحضارية • والواقع أن الرغبة الجديدة بدراسة الشخصية والحضارة تمثل مجهودا يهدف الى انهاء الاستقطاب (٤٠) الكلاسيكي بين الفرد والحضارة • فبدلا من اعتبار هذين المفهومين في حالة تعارض وانفصال يمكن أن ينظر اليهما من زاوية الارتباط والاتصال القائم بينهما •

ومما قوى في ميل الانثروبولوجيين للاستفادة من النظريات والآراء النفسية في دراسة تفاعل الفرد والحضارة هو قبول المفهوم الانثروبولوجي للنسبية الحضارية "Cultural Relativism" (١٤) من جانب عدد متزايد من المختصين

---

(٣٨) David Bidney: Towards a Psychocultural Definition of the Concept of Personality (in) **Culture and Personality,** S.T. Sargent (ed.) p. 33.

(٣٩) J. Steward. **Theory of Culture Change,** pp. 8, 183.

(٤٠) E. Sapir. "The Emergence of the Concept of Personality in a study of Culture". Culture, Language and Personality, p. 194.

(٤١) Gardner Murphy, **Personality.** pp. 903 — 905.

النفسيين • ان خبرة الانثروبولوجيين الناتجة من دراساتهم الاثنوغرافية للعديد من الجماعات البشرية الموجودة خارج حدود المدنية العربية اطلعتهم على حزمة واسعة من النظم الاجتماعية المتنوعة وبالتالي بلورت فيهم الشعور بنسبية القيم الحضارية • ولم يكن علماء النفس في الثلث الاول من هذا القرن يهتموا بهذا المفهوم ، الامر الذي جعل دراساتهم ذات طابع متحيز ضيق بحكم تقيد اصحابها بنظم الحياة السائدة في المجتمعات الاوربية • ولكن الامر قد تبدل بالنسبة لهؤلاء حيث أنهم صاروا يدركون[٤٢] اهمية البحث الاثنولوجي واساسه النسبي الحضاري • وقد ادى هذا التغير الى بدء انتشار الاتجاه الحضاري المقارن في البحوث النفسية وبالتالي شجع علماء الانثروبولوجيا على مزيد من التعاون مع الخبراء النفسيين في دراسة الشخصية •

ومن تأثيرات مبدأ النسبية الحضارية أنه جعل بعض علماء النفس الغربيين ينادون بضرورة اعادة تقييم النظريات النفسية ، خصوصا ما يتعلق منها بالامراض النفسية قبل تطبيقها على انماط سلوك اعضاء الجماعات البشرية التي تمارس نظما حضارية مغايرة لحضارات الغرب[٤٣] • ان تنقيحا كهذا من شأنه أن يخفف من آثار التحيز الحضاري المحلي "Ethnocentrism" الذي اتصفت به معظم الدراسات النفسية قبل تعرض علماء النفس للتيار الحضاري المقارن الوافد من علم الانثروبولوجيا الحضارية • وقد انتج التقارب بين الانثروبولوجيين وعلماء النفس (خصوصا المحللين النفسيين) ثمارا طيبة ظهر بعضها بشكل مشروعات دراسية اثنوسيكولوجية[٤٤] Ethno Psychological •

ويمكن تصنيف دراسات الحضارة والشخصية الى ما يأتي :

---

(٤٢) M. Brewster Smith, "Anthropology and Psychology" (in) **For a Science of Social Man,** p. 53.

(٤٣) Ibid. p. 54.

(٤٤) A. Kardiner. Psychological Frontiers of Society. Introduction.

١ - الشخصية الاساسية :

يهتم علماء الانثروبولوجيا بمعرفة ما يحدث لشخصية الفرد نتيجة لعضويته[٤٥] في المجموعات الانسانية المختلفة ، والتي يتبع اعضاؤها طرقا منسقة اجتماعيا في فعلهم وشعورهم وتفكيرهم • ان المجتمع البدائي Primitive Society يتصف بدرجة كبيرة من التجانس الاجتماعي الذي يظهر في تماثل ميول اعضائه الفكرية والعاطفية نتيجة لوحدة العرف الاجتماعي الذي تعتمد عليه العائلة في تنشئة اطفالها • ينتج من ذلك اتصاف افراد الجماعة البدائية الواحدة بخصائص سلوكية يطلق على مجموعها بالبناء الاساسي للشخصية
"Basic Personality Structure"

ان حقل الاثنولوجيا "Ethnology" يزخر بالتقارير العلمية التي تصف اعدادا كبيرة من الجماعات البشرية المختلفة النظم الحضارية • وتبرز من بين المساهمين بهذه الابحاث فئة من المختصين لم تكتف بوصف التنظيم الاجتماعي للجماعات المدروسة فحسب بل استخلصت من دراستها الميدانية لها معلومات معينة تلقي ضوء على نظام الشخصية السائدة في كل منها • وقد ادت هذه الجهود الى ظهور مفهوم الشخصية الاساسية •

ان الباحث الانثروبولوجي الميداني المهتم بالشخصية يحدد خلال اقامته مع الجماعة المواقف المتكررة في سلوك الافراد مستعملا في تحديدها الوسائل الاثنوغرافية كالمشاهدة المصحوبة بالمساهمة "Participatnt observation" والاختبارات العاكسة Projective tests والاستفادة من المخبرين وغيرها • ويطلق على هذه المواقف مصطلح « الدوافع المركزية » Nuclear motives ان الباحث يقوم بفرز هذه الدوافع عن الميول السلوكية التي تفتقر • في وقوعها الى صفة الرتابة والتكرار ويطلق عليها اسم الدوافع الجانبية Peripheral motives أن الشخصية الاساسية للجماعة تتألف من الدوافع المركزية باعتبارها قابلة التعميم على اعضاء الجماعة • وترتكز هذه

---

(٤٥) John J. Honigman, **Culture and Personality**, p. 3.

الدوافع على القيم المتمثلة في الشخصية منذ الطفولة المبكرة وتعمل التجارب الاولى على تثبيتها في اللاشعور • وتكون هذه الدوافع في حالة من التلاحم المتوازن •

وقد استغل مفهوم الشخصية الاساسية باسلوبين :

١ ـ الاول وصفي يتعلق بدراسة البناء العام لشخصية اعضاء جماعة معينة ، وخير مثل على ذلك هو البحث الانثوغرافي الذي قامت به مرجريت ميد[٤٦] عن الشخصية المحلية في جزر ساموا Samoa وغينيا الجديدة[٤٧] New Guinea

٢ ـ اما الاسلوب الثاني فيتضمن الاستفادة من مفهوم الشخصية الاساسية في الابحاث المقارنة • وقد جرت فعلا دراسات[٤٨] لنظم اجتماعية مختلفة من زاوية البناء الاساسي للشخصية في كل منها لاظهار التغاير الذي يميزها عن بعضها •

ولم يقتصر استثمار منهاج الشخصية الاساسية على دراسة السلوك البدائي فحسب ، بل تعداه الى بحث الشخصية العامة في المجتمعات المتمدنة الكبيرة • وقد استعمل مصطلح « الشخصية الوطنية »[٤٩] "National character" في الاشارة للنوع الاخير من الدراسة •

ان نقل مفهوم الشخصية الاساسية من حقل المجتمعات البدائية الى حقل المجتمعات السياسية الكبيرة يواجه عقبات واضحة ، وفي مقدمتها وجود الاختلاف الاجتماعي والاقتصادي والقومي والديني الذي يميز مقاطع المجتمع المتمدن • هذا بالاضافة الى ضخامة عدد السكان التي تعيق التطبيق المناسب لقواعد البحث الاثنوغرافي الذي لا يستغني عن المشاهدة والاتصال المباشر بالافراد الخاضعين للدراسة • ومع ذلك فقد لجأ الباحثون المهتمون[٥٠] بهذا الصنف من الدراسة الى التأكيد على الخصائص الاجتماعية المشتركة بين جميع طبقات وفئات المجتمعات

---

(٤٦) Margaret Mead, Coming of Age in Somoa.

(٤٧) Margaret Mead, Growing up in New Guinea.

(٤٨) Abram Kardiner, The Individual and His Society.

(٤٩) Margaret Mead. National Character. In A. Kroeber (ed.) **Anthropology Today.**

(٥٠) Clyde Kluckhohn. Op. cit., p. 210.

الكبيرة المدروسة واعتبروها القاسم المشترك(٥١) المحدد للمعالم الرئيسية للشخصية العامة للافراد • وواضح أن ذلك الاجراء يتطلب اختزال النظام الحضاري المعقد الى وحدات قليلة تدخل في السلوك النمطي الذي لا يشـــذ عنه افراد أي من اقسام المجتمع •

على أن الوصف الاثنوغرافي في دراســـات الشـــخصية الوطنية يعاني من نقص خطير هو أنه بحكم تأكيده على الميول السلوكية المشتركة يهمل الجوانب غير المتجانسة في المجتمع وبذلك يحجب التناقض وعـــدم التجانس الاجتماعي الموجود في المجتمع ودور الحضارة في تحقيق التوافق لمنعـــه من تفكيك البناء الاجتماعي •

٢ - القيم والايثوس Ethos

الاتجاه الرئيسي الآخر في دراسات الحضارة والشخصية يعتمد على وحدات اكثر ارتباطا بالبناء الاجتماعي للمجتمع وهي القيم الحضارية التي تحدد كيفية التفاعل الاجتماعي وترسم الطريق للعائلة في تنشئة الاطفال • ومما يساعد على تفضيل بعض الانثروبولوجيين للقيم في ابحاثهم على مفهوم الشخصية الاساســـية والوطنية هو اتصافها بدرجة اكبر من العمومية والاستقرار والموضوعية بالقياس لمفهوم الشخصية • فالقيم تعمل (حتى في المجتمعات الكبيرة) على تنسيق نقاط الاختلاف بين الافراد وهي في العادة اكثر تغلغلا في التقســـيمات الاجتماعية • فليس هنالك من مجتمع في العالم المتمدن او البدائي لا تتأسس حياته العامة على مجموعة من المعايير التي يجمع الاعضاء فيه على ضرورة احترامها وغرسها في شخصية الناشئين •

وتتنوع طرق البحث التي استعملت في هذا المجال • فهنالك اسلوب انشأته العالمة الانثروبولوجية روث بندكت • ويتضمن اجراء مسح اثنوغرافي للنظـــام

---

(٥١) G. Peter Murdock. The Common Denominator of Cultures. In Linton, R. (ed.) The Science of Man in The World Crisis, p. 23.

الحضاري الكلي السائد في المجتمع وتحديد قيمه الاساسية وتشخيص القيمة الاهم التي تسيطر على السلوك ، وتؤلف المركز الذهني والعاطفي الذي تدور حوله مواقف الفرد في تفاعله مع الآخرين• وتطلق بندكت مصطلح النمط الحضاري[٥٢] Cultural Pattern على هذه القيمة المسيطرة • ويستبدل مصطلح النمط الحضاري بكلمة[٥٣] "Ethos" في ابحاث العالم جريجوري بيتسن G. Bateson ويتضمن معنى نفسيا يماثل معناه في ابحاث بندكت •

وتعتقد روث بندكت ان استعمال فكرة النمط تساعد الباحث على تحديد الطابع النفسي العام الذي تتصف به حضارة الجماعة والذي يشتق وجوده من النمط المسيطر • وقد طبقت مبدأ القيمة المركزية المسيطرة في دراستها المقارنة التي ضمت بعض القبائل الهندية في أمريكا الشمالية (قبيلة الكواكيوتل وقبيلة الزوني) وقبيلة الدوبو في ميلانيزيا • وتتلخص دراستها في الاستقطاب العاطفي والانفعالي بين الكواكيوتل والزوني • فبينما يأخذ الطابع الحضاري لدى الجماعة الاولى شكل « الفورة العاطفية » "Frenzy" ، يسود طابع الاعتدال العاطفي لدى الجماعة الثانية وانطلاقا من هذين المبدئين النفسيين تصف النظام الحضاري لكل من الجماعتين فيظهر احدهما زاخرا بقيم الاسراف والمغالاة والتطرف ، بينما تتجلى في الآخر كل قيم الاعتدال والتواضع • أن روث بندكت لا تكتفي بتحليل الحضارة من زاوية الموقف العاطفي المسيطر بل تصدر احكاما نفسية هي في مستوى آراء الاطباء النفسيين التي يصدرونها على مرضاهم • وقد وجهت لها انتقادات كثيرة[٥٤] بسبب هذا الاجراء التشخيصي الذي عممته على جماعات بكاملها ، كنعتها لجميع سكان الكواكيوتل بصفة البارانويا •

---

(٥٢) Ruth Benedict. **Patterns of Culture.**

(٥٣) Gregory Bateson. The Naven Ceremony in New Guinea. In Margaret Mead and Nicolas Calas (ed.) **Primitive Heritage.** pp. 186 — 202.

(٥٤) Anthony Wallace. Op. cit., pp. 180 — 181.

ومن بين المناهج الاخرى لدراسة الحضارة هو المنهج المقترح من قبل الانثروبولوجست الامريكي موريس اوبلر Morris Opler • ويهدف هذا البرنامج الى تشخيص « الموضوعات »[٥٥] "Themes" الرئيسية التي يتركز حولها تفكير اعضاء المجتمع والتي تتصل بجوانب هامة في الحياة الاجتماعية •

وعلى ضوء هذا الاقتراح يصبح دور الباحث الاثنوغرافي الهادف الى تحديد الشخصية الكلية لحضارة المجتمع التعرف على الموضوعات المركزية من احاديث الافراد ، ثم الاعتماد على هذه الموضوعات في تحليل الحضارة والشخصية الاساسية • ان اقتراح اوبلر هذا اكثر عملية من الخطة التي اوجدتها بندكت لانه يخلو من معضلة تقرير أي من القيم الكثيرة هي القيمة المسيطرة على النظام الحضاري • كما أنه لا يطمح الى قياس درجة تماسك الحضارة ، كما هي الحال بالنسبة لمنهاج بندكت الذي يتصف بهذا الطموح ، الامر الذى يجعله أقرب الى الموضوعية العلمية •

والواقع أن الدراسات الاثنوغرافية لم تتجاهل « المواضيع » الايديولوجية والاخلاقية الموجودة في المجتمعات البدائية وغير البدائية التي تعرضت اليها • وقد استفادت لتحديد هذه المواضيع من القصص الفولكلورية[٥٦] Folktales والروايات الخرافية والحكم والامثال والمسرحيات وغيرها ، لان هذه المأثورات تؤلف الملامح التي تعبر عن الطابع الحضاري لاي جماعة بشرية • هذا بالاضافة الى أن الكثيرين من الباحثين الميدانيين قد استعملوا بعض الاختبارات العاكسة Projective tests للضوء الذي تلقيه على الاطار الذهني للافراد من خلال تعبيرهم عما تثيره هذه الاختبارات في مخيلتهم •

٣ ـ الدراسات التعاقبية :

تميل اكثر الدراسات الانثروبولوجية النفسية الى تحليل الشخصية في وقت معين دون الاهتمام بالتعاقب الزمني • ان هذا النوع من الدراسة التزامية Synchronic study يقوم على المبدأ القائل برتابة وثبوت نظام

(٥٥) R. L. Beals and H. Hoijer. Op. cit., pp. 216 — 217.

(٥٦) P. Radin. Primitive Man as Philosopher. Chapter One.

الشخصية بحكم استمرارية الانماط الحضارية نتيجة انتقالها من جيل الآباء الى جيل الابناء ومن هؤلاء الى الاحفاد • ان تماثل ظروف التنشئة الذي يأخذ بـــه هذا النوع من الابحاث هو حقيقة لمســـها الانثروبولوجيون في بعض الجماعات البدائية التي بقيت في عزلة عن التأثيرات الخارجية • ولكن هناك صنف من البحث لم يتجاهل مشكلة نمو الشخصية الذي يرافقه انتقال الفرد من منزلة لاخرى وما ينطوي عليه ذلك الانتقال من مشاكل التكييف النفسي[٥٧] ، وينضوي هـــذا الشكل تحت صنف البحث التعاقبي •

والى جانب دراسات الشخصية التي ترتكز على فرضية استمرار نفس النمط عبر الاجيال ظهرت ابحاث تؤكد على موضوع تبدل الشخصية في المجتمع • ان هذه الابحاث تفسر تغير الشخصية كنتيجة لعوامل التغير الحضاري التي يتعرض اليها المجتمع[٥٨] • فالتبدل الاقتصادي والتكنولوجي مثلا يؤدي الى احداث تبدل في اساليب المعيشة وبالتالي يدخل تغييرا ما في تربيـــة الاطفال • فالتحول في الشخصية بين الاجيال[٥٩] يأتي نتيجة للتغير الحضاري الذي يؤثر في بدايتـــه بتجارب ما بعد الطفولة فيؤدي الى تهديد التماثل التقليدي بين الآباء والابناء • ان الدراسات الانثروبولوجية التي تناولت موضوع الاتصال الحضاري بين المجتمعات المتخلفة والمجتمعات المتقدمة اظهرت اشكالا مختلفة من التصادم السلوكي بين جيل الكبار وجيل الصغار نتيجة عدم توازي مدى التغير في شخصيات اعضاء الجيلين في المجتمعات التي انتظمتها تجربة التحول الحضاري •

ان نمو عدم تجانس الشخصية بين اجيال المجتمع المتبدل يؤثر بصورة سلبية في التماسك الاجتماعي • فقد وجد أن نمو الاختلاف الاجتماعي والثقافي بين الافراد يقود الى تقليل درجة التماسك الاجتماعي ويهدد التكامل الحضاري في المجتمع ، الامر الـــذي يعرض الافراد الى حالات الاضطراب النفســـي[٦٠] • والجدير

---

(٥٧) John Honigman. Op. cit., p. 309.

(٥٨) M. Mead: New Lives for Old, pp. 371 — 85.

(٥٩) David Riesman. **The Lonely Crowd.** راجع مصدر

(٦٠) A.F.C. Wallace. Op. cit., p. 188.

بالذكر ان هذه الحالات المرضية لا تنتج من كل وضعيات التغير الاجتماعي بل من تلك الوضعيات التي يكون التغير فيها سريعا ومتظمنا ادخال عوامل جديدة تتناقض بصورة جوهرية مع مكونات العرف الاجتماعي السائد •

التعميم النفسي في الانثروبولوجيا

على الرغم من تبني الانثروبولوجيين لمفهوم الشخصية الاساسية الذي يتضمن اعترافا صريحا[٦١] بنسبية « انظمة الشخصية » في المجتمعات المختلفة ، فان الباحثين قد اظهروا اهتماما بالبحث عن الصفات المشتركة التي يتصف بها الانسان في المجتمعات ذات الحضارات والعناصر المتغايرة • والبحث عن ظواهر التشابه النفسي في المجموعات الحضارية هو ليس بالشيء الجديد ، بل واكب جهود بعض الانثروبولوجيين الاقدمين • فالمفكر باستيان ذكر في بعض مؤلفاته أن النوع البشري كثيرا ما يكتشف نفس الافكار الاولية بحكم خضوع اعضائه الى قانون[٦٢] الوحدة النفسية العام • وقد نسب هذا المفكر اختلاف استجابات الافراد الى تحفيز العوامل الخارجية المختلفة التي تولدها الظروف الجغرافية المفتقرة الى التشابه • وتتكرر الاشارة لوحدة الانسان في بعض آراء العالم ادوارد تايلر "E. Tylor" • فهو ينسب التماثل في خطوط التطورات في المجتمعات الى تشابه عمل[٦٣] الذهن البشري في الظروف المتشابهة •

على أن الطموح لتحديد معالم الطبيعة البشرية "Human nature" أصبح يرتكز على أساس أكثر تواضعا واقرارا بضعف الامكانيات العلمية المطلوبة لبلوغ هذا الهدف • ويظهر ذلك في تساؤل العالم الامريكي بول ريدن عما اذا كان من المؤمل الظفر بالمعرفة المناسبة عما يؤلف الطبيعة البشرية • وهو يعترف[٦٤] بأن الوسائل الضرورية لهذا النوع من الدراسات لم تطور لحد الآن •

---

(٦١) A.F.C. Wallace. Op. cit., p. 118.
(٦٢) R. Lowie. Op. cit., pp. 35 — 36.
(٦٣) Ibid, pp. 76 — 77.
(٦٤) Paul Radin, **The Method and Theory of Ethnology.** P. 267

ومن بين المحاولات الهادفة لوضع اساس عالمي لدراسة الطبيعة النفسية للانسان هي تلك التي قدمها العالم يونج Jung • وتتعلق بفرضيته القائلة بأن « العقل الباطن » للانسان هو حصيلة التجارب التاريخية القديمة التي مر بها الآباء الاقدمون واستحالت الى ترسبات لا شعورية جمعية موروثة • وتحت مستوى اللاشعور الشخصي في الفرد ـ حسب رأيه ـ يكمن اللاشعور الجمعي او العنصري الذي يخص العنصر الذي ينتمي اليه الفرد وهو يضم ـ على زعمه ـ معتقدات واساطير ذلك العنصر • ويقرر يونج أن اعمق مستويات اللاشعور الجمعي في الانسان هي الحالات النفسية العالية التي تنطبق على النوع البشري كله[٦٥] •

ان هذه الآراء التي اقترحها يونج لم تلاق تأييدا كبيرا • فقد اعتبرت تزويقا وتعقيدا غير ضروري لظواهر يمكن أن تفسر باسلوب ابسط • ومن بين المعترضين على مبدء اللاشعور الجمعي هو العالم الانثروبولوجي جيزا روهايم Geza Roheim فهو يعتقد أن بالامكان فهم الظواهر النفسية التي درسها يونج دون اللجوء لهذا المبدأ • فالتفسيرات النفسية الباطنية هي ذات نطاق عالمي ينطبق على البشر جميعا • اما تفسيرات الذات أو (الانا) حسب اعتقاد روهايم فتظهر التفاصيل السلوكية الخاصة بالحضارات المحلية للافراد • وهكذا كلما اقترب المحلل من مستوى « الوعي الذاتي » كلما ازداد الطابع المحلي في نتائج الدراسة وارتبطت اكثر بعوامل خاصة بالفرد ومجتمعه المحلي • وعلى العكس فانه كلما تعمق الباحث في اللاشعور كلما اقترب اكثر من المستوى البايولوجي للتجارب البشرية[٦٦] العالمية •

وقد تنوعت نقاط تركيز الباحثين في جهدهم الرامي لعزل مكونات الطبيعة البشرية • فقد رأى كلكهون ضرورة تشخيص النماذج الحضارية[٦٧] التي

---

(٦٥) J.A.C. Brown. Freud and The Post-Freudians, pp. 44 — 46.

(٦٦) J.A.C. Brown. Ibid, p. 47.

(٦٧) Clyde Kluckhohn. Universal Categories of Culture. In A.L. Kroeber (ed.) **Anthropology Today.**

تتكرر في جميع الحضارات والتي يرتبط وجودها بعوامل ناتجة من وحدة الانسان • وينظر بعض المختصين للجانب العضوي "Phylogenetic side" الذي يتناول القدرات السايكولوجية البشرية كخصائص ينفرد بها الانسان دون بقية اعضاء المراتب الحيوانية العليا "Primates" كاساس مناسب لبحث الظواهر النفسية • ويلاحظ العالم كنث اوكلي مثلا أنه على الرغم من تصوير الباحثين للانسان كحيوان ذي مقدرة على النطق والتفكير السببي والروحي والابتكاري ، فان الحاجة لتعريف الانسان علميا لم تقابل بنجاح لحد الآن(٦٨) •

وعلى الرغم من غزارة البحث العلمي المنصب على دراسة الانسان بصفته كائن فريد متميز عن باقي الكائنات الحية ، الا أن الخصائص والعمليات النفسية الانسانية لم تلق التوضيح المناسب من زاوية علاقتها بالسلوك الحيواني للمجموعات العضوية الاخرى •

ان الانثروبولوجست في دأبه على فهم وتحديد مشكلة الطبيعة البشرية يختلف عن زميله العالم النفسي في كون معظم تأكيداته تدور حول الجوانب الحضارية لهذه المشكلة • وهو يعترف بخدمات العالم النفسي التي تضمنت توفير المعلومات له عن عمليات التغير النفسي التي تتأسس عليها الانماط الحضارية • وقد اصبح الاهتمام النفسي يهيء للمختصين الانثروبولوجيين فرصا أحسن لفهم الدوافع والانماط العالمية للظواهر الحضارية وتقييم الدور الخاص للتجارب التاريخية والعرف المحلي في اختلاف المجتمعات •

المنهاج الحضاري المقارن

لعل من اهم التطورات التي يتوقف عليها مستقبل الدراسات الانثروبولوجية النفسية هو ظهور اتجاه البحث الاثنولوجي لحضاري المقارن(٦٩) Cross-Cultural Research • وترجع اهمية هذا البحث الى

---

(٦٨) Kenneth Oakley. "A definition of Man". Science News, 20 Penguin Books, 1951.

(٦٩) Julian Steward. **Theory of Culture Change**, pp. 3, 4, 179 — 85.

عدة اسباب منها أنه يمنح فرصا واسعة لدراسة الظواهر النفسية في الانظمة الاجتماعية المختلفة في العالم ، وبذلك يظهر درجة تنوع Variation هذه الظواهر • والمعروف عن الكثير من النظريات والآراء النفسية التي تم التوصل اليها في علم النفس أنها وليدة الدراسات والتجارب الخاصة بسلوك الافراد في المجتمع الغربي ، وهي لذلك السبب توصف بالتحيز العلمي والافتقار للوضعية المنهجية •

ومن البديهي ان الاسلوب الحضاري المقارن سيساعد على التحقق من مدى عمومية هذه النظريات والآراء بالنسبة لاشكال السلوك في المجتمعات غير الغربية • ويستطيع المتتبع ان يلمس ثمار هذا الاسلوب في تصحيحه بعض الانطباعات التي اعتبرت سابقا في حكم الآراء القياسية الثابتة •

وهناك الكثير من المشاكل النفسية التي طرقها البحث الاثنولوجي المقارن لاختبار ما ظهر حولها من نظريات نفسية • وهي تضم على سبيل المثال موضوع المراهقة ، والتنشئة والمزاج والجنس وتحريماته "incest taboos" وعقدة اوديب وغيرها من المشكلات •

فظاهرة المراهقة "adolescence" كانت من بين المواضيع التي اهتم بها علماء النفس ولكنهم درسوها في نطاق نظام العائلة السائد في الغرب • وقد كشف البحث الاثنولوجي أن هناك اختلافات اساسية في نوع التجارب العاطفية والاجتماعية التي تواجه المراهقين في المجتمعات المختلفة ، الامر الذى لا يبيح اضفاء صفة الرتابة والقياسية على مفهوم المراهقة كما لو كان مستقرا على اسس عضوية فحسب • فالازمات العاطفية التي يعاني منها مراهقو المجتمع الغربي التقليدي هي ليست من المصاحبات العالمية للمراهقة ، اذ تكاد تختفي كلية لدى مراهقي جزر[٧٠] ساموا مثلا •

---

(٧٠) Margaret Mead. **Coming of Age in Somoa.**

يتضح من ذلك أن مفهوم المراهقة لا يتحدد بعوامل بايولوجية محددة بل لابد أن تعتمد دراسته على فحص العوامل الحضارية التي تكسبه شكله النهائي وتخلق تنوعه في العالم • ان هذا الاتجاه يتعارض ، مثلا ، وموقف العالم النفسي الامريكي ج• ستانلي هول G. S. Hall • فقد نظر للمراهقة كنتيجة طبيعية مميزة لوراثة الكائن البشري التي انحدرت اليه من اجداده الاقدمين • وقد وصف المراهقة بالثورة العاطفيـــة والاكتئاب وقال بوراثتهما عن الاجداد في العصور السحيقة حيث كانوا في نزاع مستمر من أجل التسلط[٧١] والسيطرة• ان هذا التعميم لا يمكن أن يقبل لصعوبة اثبات اساسه الوراثي ، اضافة الى اعتماده على دراسة ميدانية محلية لم تتناول سوى عينة من الافراد في نفس المجتمع • فالكبت العاطفي الذي يواجه الفتيات المراهقات في الاسرة الغربية التي عاصرها هذا العالم يختفي في حياة مراهقات الكثير من المجتمعات الاخرى ، كما يتضح في دراسة مارجريت[٧٢] ميد لمجتمع سامـوا •

ان الاضواء الجـــديدة التي القاها البحث الاثنولوجي المقارن على مختلف الظواهر النفسية لاقت مواقف مختلفة في الاوساط الاكاديمية النفسية • فالى جانب الترحيب بالاتجاه الحضاري الجديد ظهرت معارضة البعض له • وقويت هـــذه المعارضة بصورة خاصة بين صفوف المحللين النفسيين الفرويديين التقليديين الذين تمسـكوا بمفهوم الـ "Libido" البايولوجي • وفي الوقت الذي سعى فيه فرويد الى استعمال بعض المعلومات الاثنولوجية[٧٣] لدعم التفسير الحضاري لنظريته عن عقدة اوديب Oedipus Complex (ولم يوفق في ذلك حسب رأي اكثرية الانثروبولوجيين) جرت محاولات في حقل الانثروبولوجيا لاختبار تلك النظرية • وتعتبر دراسة مالنفسكي B. Malinowski في جزر ميلانيزيا[٧٤] ابرز هذه المحاولات • ومما اظهرته هذه الدراسة عدم انطباق تفصيلات « عقدة اوديب »

---

(٧١) Otto Klineberg. **Social Psychology,** p. 490.

(٧٢) Margaret Mead. Coming of Age in Somoa, p. 493.

(٧٣) Sigmund Freud. Tolem and Taboo.

(٧٤) Brouislaw Malinowski, Sex and Repression in Savage Society, pp. 17 — 28.

التي اقترحها فرويد على سلوك افراد تلك الجزر • ان هذه الدراسة والدراسات المماثلة خلقت وعيا بين بعض المحللين النفسيين بضرورة الاستفادة من الابحاث الاثنولوجية وتسخيرها لغرض تحديد التفصلات التخصيصية المتحيزة حضاريا في آراء فرويد والتي تنطبق على مجتمع الطبقة الوسطى في فينا الذي اجرى فيه اكثر تجاربه ، وتمييزها عن الجوانب العامة في ابحاثه التي تصلح للتعميم على المجتمعات الاخرى • ولا شك أن عالمية الاسرة تسمح بهذا النوع من التنسيق •

ومما يشجع على تعميق الارتباط بين البحث النفسي والحضاري المقارن هو النجاح الذي لاقاه استعمال بعض الوسائل الفنية التي طورت على يد الخبراء النفسيين في الدراسات الاثنولوجية• ومن أهمهذه الوسائل الاختباراتالعاكسة منها بصورةخاصة Projective tests كاختباراتروورشاخ والـ .T.A.T التيتلائم البحث الانثروبولوجي المقارن لتجردها بصورة كبيرة من عناصر التحيز الحضاري التي تفسد استعمال الاختبارات النفسية الاخرى لهذا الغرض[٧٥] •

ويبدو أن الاتساع في ميدان التعاون والتلاقح بين الانثروبولوجيين والمحللين النفسيين قد قوى الدعوة الى اعادة النظر ليس في المفاهيم النفسية النظرية فحسب بل وفي النظريات والاجراءات التشخيصية والعلاجية المستعملة • كما ادى الى مطالبة البعض بتنقيح اللغة العيادية باعادة تحديد[٧٦] معاني المصطلحات المرضية كالشيزوفرينيا "Schizophrenia" والبارانويا "Paranoia" والهلوسة Hallucination وغيرها[٧٧] على ضوء مكتشفات الاثنولوجيين في المجتمعات غير الاوربية • فقد تم تحديد هذه المصطلحات على ضوء الاعتبارات والقيم الغربية دون عرض التشتت والاختلاف الذي يظهر في مواقف المجتمعات الاخرى من مضامين هذه المصطلحات • والمعروف أن بعض المجتمعات التي شملها البحث الانثروبولوجي تعود افرادها على اشكال من السلوك النفسي قد تبدو

---

(٧٥) J. Honigman, op. cit., p. 21.

(٧٦) A.F.C. Wallace, op. cit., p. 165.

(٧٧) P.L. Harriman, Dictionary of Psychology.

للمشاهد الاوربي بمظهر السلوك النفسي المريض • ومن اشكال هذا السلوك ما يظهر في طقوس الجماعات البدائية من الهستريا الشعائرية ، وحالات الصرع والغيبوبة ، وتعذيب النفس المؤدي للهلوسة وغيرها من الحالات التي تعتبر طبيعية وسليمة[٧٨] في نظر تلك الجماعات ما دامت تنبع من صلب مؤسساتهم الاجتماعية • ولا شك أن هذه الحالات لا يمكن أن تفسر من قبل المحلل النفسي الغربي بنفس الاسلوب الذي يتبعه في دراسة مثيلاتها في مجتمعه • فتلك الحالات المشاهدة لدى البدائيين وغير البدائيين من غير الاوربيين تختلف عن الامراض النفسية لدى الغربيين في نقاط بارزة اهمها ان الطقوس تثيرها في سلوك الفرد بصورة اختيارية مقصودة • وهي الى جانب ذلك حالات موقوتة تزول بانتهاء الطقس الشعائري ولا تؤدي الى تدهور منزلة فاعلها او نقله من مركز الفرد السوي الى مركز الفرد الشاذ ، بل تعمل على تحسين مكانته • وهذا هو عكس الاضطرابات النفسية « السايكوتية » Psychotic disorders المتفق عليها في المجتمع الغربي والتي تتصف بصفة الدوام وصعوبة المعالجة وبأنها تدخل في صنف السلوك الشاذ وتخفض من منزلة المتصف بها •

والملاحظ أن الاشكال التفصيلية التي تظهر بها الامراض النفسية لا تتشابه حتى بالنسبة لسكان المجتمعات الغربية المختلفة • وتتضح هذه الحقيقة مثلا في بحث الانثروبولوجست الامريكي موريس اوبلر Morris Opler عن المهاجرين الايرلنديين والايطاليين[٧٩] في الولايات المتحدة • فقد وجد أن سلوك المصابين بالشيزوفرينيا من الجاليتين يختلف تماما • فبينما يميل الشيزوفريني الايطالي الى العربدة والسلوك الاعتدائي ، يتصف الايرلندي المصاب بهذا المرض بالوداعة والميل الى العزلة والهدوء • ان هذا الفرق يعود دون ريب الى اختلاف الانماط الحضارية في مجتمعيهما الاصليين ودور هذه الانماط في تحديد الكيفية التي يستجيبان بها للمرض النفسي الواحد •

---

(٧٨) A.F.C. Wallace. Op. cit., p. 165.

(٧٩) A.F.C. Wallace. Ibid. P. 175.

ان الدراسات الانثروبولوجية النفسية يمكن أن تخطو خطى اوسع لو زاد تركيز المختصين فيها على استثمار العينات الاثنوغرافية "Ethnographic samples" الكبيرة وفحصت في هذه العينات جوانب نفسية وحضارية مختلفة لضبط وجوه التوازي والتغاير فيها • ان هذه هي اسلم الطرق التي يمكن أن توصل للظفر بالقوانين النفسية والحضارية غير المتحيزة • ونحن ندرك أن غزارة المعلومات الاثنولوجية عن العديد من المجموعات الحضارية في العالم يسهل مثل هذا الاستثمار • ولنا خير مثل على هذا الاسلوب في « النموذج الاثنوغرافي » الذي اعتمد عليه العالم جورج مردوك في دراسته الحضارية المقارنة والذي اشتمل على ٢٥٠ جماعة حضارية موزعة في انحاء متفرقة من العالم • ولعل الاجراءات المنهجية التي اجتهد بوضعها هذا العالم في مشروعه(٨٠) الطموح المسمى Human Relations Area Files هي عامل آخر يذلل الكثير من عقبات الدراسة الاثنولوجية المقارنة سواء كان هدفها تحديد ظواهر حياة الانسان النفسية أم الحضارية •

---

(٨٠) ان هذا المشروع يتألف من مجموعة كبيرة من « الفايلات » التى يخص كل منها مجتمعا او جماعة حضارية معينة • ويضم الفايل الواحد كلما يصل مركز المشروع من الابحاث الاجتماعية والانثروبولوجية والنفسية والاقتصادية المكتوبة عن الجماعة التابع لها • فهنالك مثلا فايل عن العراق يضم عشرات الكتب المختلفة المكتوبة عنه وهى مخزونة فى خزانات مرقمة ومكتوب عليها اسم العراق • وكل قطر او جماعة لها خزاناتها المدونة عليها اسماؤها • وفى امريكا اكثر من ١٦ جامعة تملك كل منها مشروعا كهذا وهى تتسلم مراجع فايلاتها من المركز بجامعة ييل •

مراجـــع البحث

1. Ralph Beals & Harry Hoijer, **An Introduction to Anthropology.** The Macmillan Co., New York. 1956.
2. Ruth F. Benedict, **Patterns of Culture.** A Mentor Book, New York, 1934.
3. David Bidney, "Towards a Psychocultural Definition of the Concept of Personality". (in) S.T. Sargent & M.W. Smith (eds.) Culture and Personality. New York. 1949.
4. Franz Boas, **The Mind of Primitive Man.** The Macmillan Co., New York, 1938.
5. J.A.C. Brown, **Freud and the Post-Freudians.** Penguin Books, London, 1963.
6. SigmundFreud, Totem and Taboo. Random House, New York, 1946.
7. John J. Honigman, **Culture and Personality.** Harper & Brothers, New York, 1954.
8. Abram Kardiner, "Psychodynamics and the Social Sciences". In **Culture and Personality.** (eds.) S.S. Sargent & M.W. Smith, Viking Fund Inc., New York, 1949.
9. Abram Kardiner, **Psychological Frontiers of Society.** New York,
10. Otto Klineberg, Social Psychology. Henry Holt & Co., New York, 1940.
11. Clyde Kluckhohn, "Universal Categories of Culture". In **Anthropology Today.** (ed.) A.L. Kroeber, Chicago, University of Chicago Press, 1953.
12. A. Kroeber, **Anthropology.** Harcourt, New York, 1949.
13. Clyde Kluckhohn, **Culture and Behavior.** The Free Press, New York, 1962.
14. Robert Lowie, **The History of Ethnological Theory.** Rinehart & Co. Inc., New York, 1937.
15. Robert Lowie, **Culture and Ethonology.** New York, 1917.
16. Bronislaw Malinowski, **A Scientific Theory of Culture.** A Galaxy Book, New York, 1949.
17. Bronislaw Malinowski, **Sex and Repression in Savage Society.** Meridian Books, New York, 1955.
18. Margaret Mead, **Coming of Age in Somoa.** William Morrow & Co. New York, 1928.
19. Margaret Mead, **Growing Up in New Guinea.** William Morrow & Co., New York, 1930.
20. Margaret Mead, **New Lives for Old.** William Morrow & Co., New York, 1956.

21. Margaret Mead, & R. Metraux (eds.) The Study of Culture at a Distance. Chicago, 1953.
22. J. Peter Murdock, **Social Structure.** The Macmillan Co., New York, 1947.
23. J. Peter Murdock, "The Common Denominator of Cultures". In Ralph Linton (ed.) **The Science of Man in the World Crisis.** New York. 1945.
24. Gardner Murphy, **Personality : A Biosocial Approach to Origins and Structure.** Harper & Brothers, New York, 1947.
25. S.F. Nadel, **The Foundations of Social Anthropology.** The Free Press, Illionois, 1952.
26. Kenneth Oakley, "A Definition of Man". Science News, 20 Penguin Books, 1951.
27. Paul Radin, **Primitive Man As Philosopher.** Dover Inc., New York, 1957.
28. A.R. Radcliffe-Brown. "Taboo". In W.A. Lessa & E.Z: Vogt (eds.) **Reader in Comparative Religion.** Row & Peterson & Co., New York, 1958.
29. A.R. Radcliffe-Brown. **The Andaman Islanders.** Second Ed., Cambridge, 1933.
30. E. Sapir, "Culture, Genuine and Spurious". **In Culture, Language and Personality,** Selected Essays, (ed.) David G. Mandelbaum, Berkeley, 1958.
31. E. Sapir "Cultural Anthropology and Psychiatry". In **Culture, Language and Personality.**
32. E. Sapir "The Emergence of the Concept of Personality in a Study of Culture". **Culture, Language and Personality.** Selected Essays.
33. Julian Steward, **Theory of Culture Change.** Urbana, University of Illinois Press, 1955.
34. David Riesman, **The Lonely Crowd.** New Haven, Yale University Press, 1950.
35. Paul Radin, The Method and Theory of Ethnology. McGrow-Hill, 1933.
36. W.H. Rivers, **The Todas.** London : Macmillan and Co., 1906.
37. W.H. Rivers, **The History of Melanesian Society.** Cambridge, 1914.
38. Anthony F.C. Wallace, **Culture and Personality.** Randon House, New York, 1961.